ثرثرة هوانم

على مدار نصف ساعة تقريبًا، هي فترة عُطل فني بالخط الثاني للمترو من شبرا إلى المنيب، لفت انتباهي حديث سيدتين، يبدو للوهلة الأولى أنهما صديقتان أو قريبتان، كما أنهما مثقفتان جدًّا.

الأولى خمسينية حسنة المظهر، متحررة في حديثها وملبسها، تتحدث الفصحي بطلاقة، والثانية أربعينية، لا تختلف عن الأولى في شيء، سوى أنها تتحدث العامية المُنمَّقة، وكلتاهما كانتا ناقمتين على الفساد الإداري المنتشر في معظم مؤسسات الدولة.

الحديث بين السيدتين جاء تعقيبًا على خبر منشور في جريدة الأهرام نقلاً عن صحيفة «تشاينا دايلي» لأحد القيادات الصينية.

ملخص تفاصيل الخبر يوضح أن «70 مسئولاً صينيًّا قاموا بزيارة مسئولين محكوم عليهم بالسجن في قضايا فساد عبارة عن رشوة وسرقة وإساءة استخدام سلطة، الأمر الذى جعل من الزيارة تذكيرًا واضحًا بعدم سلوكهم هذا الطريق».

ولفت الخبر إلى أن «الزائرين قضوا يومًا كاملاً في السجن؛ على سبيل التعلم والعظة»، وأن «سبب تعليق صور التحقيقات مع الفاسدين الصينيين على جدران السجن لكى يراها الزائرون».

فيما أوضحت «اللجنة المركزية لبحث الانضباط الحكومي الصيني أن «هذه الزيارة تم تنظيمها لتنبيه المسئولين بأن عليهم أن يكونوا مدركين لعواقب الأخطار المتعلقة بالفساد».

تسأل الأربعينية صديقتها:

– طيب يا ترى يا هل ترى: هل لدينا النية والعزيمة لتطبيق التجربة الصينية في مصر؟ هذا على اعتبار أن رئيس الجمهورية يصدر، من خلال خطته الطموحة في القضاء على الفساد، قرارًا بتشكيل لجنة مماثلة لبحث الانضباط الحكومي؟!

وتكمل:

– طيب، ولو تشكلت هذه اللجنة، وأرادت أن تطبق التجربة الصينية على عدد من الوزراء والمحافظين والمسئولين الكبار، وترسلهم لزيارة ما تَبقَّى في السجون من أركان نظام مبارك، ومن على شاكلتهم لقضاء يوم واحد في السجن للاطلاع على صحائف جرائمهم التي ارتكبوها ضد الشعب كنوع من الردع لكل من تسول له نفسه بأن يرتكب نفس الجُرم، فهل سيقبلون؟!

وقبل أن تسترسل الأربعينية في أسئلتها اللاذعة، عاجلتها الخمسينية بإجابات قاطعة:

– أشك في ذلك؛ لأن أغلب مسئولينا من فئة وكيل وزارة يتعاملون مع المنصب وكأنه «غنيمة» وفرصة لا تُعوَّض للنهب والسرقة و«تمشية» الحال والانتقام، وتصفية الحسابات من الخصوم في بعض الأحيان.. ومن ثم يتعاملون مع المواطن وكأنه «شحاذ» وليس صاحب حق، ينسون دائمًا أو يتناسون – ربما – أنهم جاءوا لمناصبهم؛ من أجل خدمة المواطن وليس الاستعلاء عليه.

وأردفت:

– كما أن هذه النوعية من المسئولين تتجاهل تمامًا أن مرجعها إلى من لا يغفل

ولا ينام.. كما نلاحظ عليهم عدم الاكتراث أو الخشية من الأجهزة الرقابية أو الجهات السيادية، ومن ثم فلا رقيب عليهم سوى ضمائرهم فقط!!

تبتسم الأربعينية بعد أن تمصمص شفتيها:

– طيب يا ستي، خليني أتكلم بصراحة، الأجهزة الرقابية عندنا مغلولة اليد، بداية من الرقابة الإدارية والنيابة الإدارية، مرورًا بالجهاز المركزي للمحاسبات، وختامًا بالأموال العامة، و.... وهذا يجعلني وغيري ممن يخافون على هذا الوطن أن نلفت انتباه السيد الرئيس إلى أنه إن «لم يتصدَّ شخصيًّا – من خلال صلاحياته – لهذا «العفن»، فلا أمل في أي شيء، فقديمًا قالوا: «ضعف الحائط يُغري اللصوص».

ترد الخمسينية بابتسامة مشابهة لصديقتها، بعد أن تومئ برأسها بالموافقة على طرح صديقتها:

– لديَّ اقتراح متواضع، وأتمنى لو يتبناه الإعلام؛ إنقاذًا للوضع السيئ الذي وصلنا إليه.

تعاجلها الأربعينية بسخرية تنمُّ عن دهاء وعمق صداقتهما في الوقت ذاته:

– هاتي ما عندك يا أم العُرِّيف.

ترد الخمسينية بلغة عربية فصحى وثقة زائدة بالنفس:

– بصرف النظر عن «سخافتك» التي تعودت وغيري عليها، لكن من الضرورة جدًّا وضع لوحة إرشادية في مكتب كل موظف – صغر حجمه أو كبر – نذكره بحقوقه وواجباته وكيفية تعامله مع المواطن.. فضلاً عن العواقب التي يمكن أن تواجهه إذا أخلَّ بواجبات عمله، وكذلك وضع البيانات اللازمة للجهات التي يمكن أن يلجأ إليها المواطن إذا تعرض لظلم أو أي نوع من التعنت أو الابتزاز من الموظف.. على أن تكون هناك جهات مختصة للتحقيق الفوري في مثل هذه

الشكاوى؛ لضمان جدية التجربة.

تبتسم الأربعينية ابتسامة يملؤها الود والمحبة لصديقتها:

- حبيبتي، والله باضحك معاك، لكن بكل صراحة أنا أيضًا أتمنى أن تجد نصيحتك هذه آذانًا مُصغية من صُناع القرار؛ حتى نخفف من ضجر وسخط المواطن الذي يقرأ ويسمع يوميًّا عن فساد العديد من مسئولينا هنا وهناك في العديد من المواقع الحكومية والخاصة.

إلى هنا انتهى حوار السيدتين، ولم يتحرك المترو إلا بعد ذلك بحوالي خمس دقائق، لحظتها استحضرت بعض المعلومات التي تؤكد أن الصينين تعلموا منا قديمًا، واليوم منهم نتعلم.

الأمة الصينية التي صنعت مجدها وسط ظروف قاسية لا تحتمل التقاعس أو التراجع أو التراخي، أمة قالت ففعلت، أمة خططت فنفذت، أمة رفعت شعارها الرائع «التصدير أو الموت» منذ منتصف الثمانينيات، فكان لها ما أرادت.

أمة استطاعت أن تنقذ نفسها من مستقبل مظلم، بعد أن وصل عدد سكانها إلى مليار وربع المليار نسمة تقريبًا، أمة غزت بتجارتها وصناعتها وسياستها وقوتها كل دول العالم، أمة فرضت احترامها على غيرها بالعمل والإنتاج.

فهل يمكن لنا بعد قيامنا بثورتين عظيمتين أن نحذو حذوها؟!

المنطق والتاريخ يقولان نعم ممكن؛ لأننا أهل للتقدم والرقى والرفاهية، نعم ممكن أن نتفوق على الصينيين وغيرهم وفى وقت قياسي، إذا سلكنا نفس طريقهم في محاربة اللصوص، وقضينا على الفساد والمفسدين مثلما فعلوا.. انتهى.